

افتراءُ الأُمِّيَّةِ على النبيِّ محمدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَشَفٌ وَتَحْقِيقٌ فِي ضَوْءِ نَشْأَةِ اللُّغَةِ، وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

أ.د. علي عبدالفتاح الحاج فرهود

أستاذُ الدراساتِ الدَّلاليَّةِ القرآنيَّةِ والنحويَّةِ

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

Illiteracy of the Prophet Muhammad (PBUH) revealed and investigated in light of the origin of the language and the Holy Quran

Prof. Dr. Ali Abdel Fattah Alhaj Farhoud

Professor of Semantic and Qur'anic Studies

College of Education for Human Sciences\ University of Babylon

Abstract:

When looking at the library of the Holy Quran, we find ourselves sailing in an ocean of unlimited horizon, looking for new flawless publications of books, studies and researches written about the Holy Quran and on Prophet Muhammad (Allah's peace and blessings be upon him and his immaculate progeny). Unfortunately, publications of such a quality did not exist yet; and this is quite justifiable, taking into account the humans' limited mental abilities that stand helpless in front of the miracles of our Creator (glorified and exalted He be). Despite acknowledging this fact, we keep digging deep in search for the ultimate knowledge which our God and His Messenger command us to seek from cradle to grave !

Consequently, I have started preparing a cultural and scientific study that aims at shedding light on the literate status of Prophet Muhammad (PBUH) to prove the wrong and unjust claim that he was unable to read and write. It is commonsense that the person who is chosen by Allah (glorified and exalted He be) to impart His words should at least be capable of reading and writing. For it is naïve to think that Allah (glorified and exalted He be) chooses an illiterate person to deliver His miracle which rests on reading and writing. Besides, the Holy Quran affirms that: □Allah does not impose upon any soul a duty but to the extent of its ability□ (Cow: 286 .

This study, therefore, will prove that Prophet Muhammad (PBUH) was able to read and write from the early stages of his life and this was one of the features that enabled him to be an actively influential member of his society .

To achieve the aims of this study, the following procedures will be adopted :

- 1- Raising questions related to the framework of the research which are answered in the course of the study and in the reader's mind .
- 2- Reviewing the evolution of the human language which we believe to be inspired to the first human being, i. e. Adam, and we totally reject the unsound opinions that man was evolved from apes or birds .
- 3- Surveying some relevant Quranic texts as well as the historical events which document the evolution of writing and reading in order to correct the misconceptions we find in some texts .

We hope that by adopting these procedures we will objectively disclose the related facts in defence of our Prophet Muhammad (PBUH) to win Allah's acceptance and content. We believe that spreading the sound facts will serve researchers, readers and knowledge seekers.

Keywords: slander, illiteracy, Prophet Muhammad, revelation and correction, in light of, the origin of language, the Holy Quran.

الملخص:

أُفدِمُ بِتَقَّةِ بَحْثِي الْإِنصَافِيَّ (اِفْتِرَاءُ الْأُمِّيَّةِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): كَشَفٌ وَتَحْقِيقٌ فِي ضَوْءِ نَشْأَةِ اللُّغَةِ، وَالْقُرْآنِ

الْكَرِيمِ) بَحْثًا تَحْقِيقِيًّا مَوْضُوعِيًّا مَجْرَدًا عَنِ الْإِنْحِيَاذِ التَّقْلِيدِيِّ، فَوَامَهُ الْكَشْفُ الْاسْتِدْلَالِيُّ لِتَمَكِّنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) نُذُنِيًّا

من (القراءة، والكتابة) في ضوء العرض اللازم موضوعياً لنشأة اللغة من جهة؛ كونها كانت مذ نشأ الإنسان الأول على الأرض بأمر الله تعالى، والتوثيق القرآني من جهة أخرى، ورد الأباطيل، والتزوير، والقراءات الاستدلالية الخاطئة التي (ابتدعت نصوصاً ووقائع، وفهمت عكس المراد من نصوصٍ أُخرى)؛ إذ أكدت الحقائق المتجلية بحثاً في نشأة اللغة الإنسانية، والحقائق القرآنية أن (القراءة، والكتابة) من لوازم الحياة السامية للإنسان السامي التي بها وُجد، وبها يدعو ويُناجي ويسأل، وبها يتواصل، ويتحاور، ويراسل، ويوثق، ويفهم، ويُحِبُّ، وبها يحكم ويُقاضي.

من هذه الحقيقة الثابتة تحصل لي أن القول بجهل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بالقراءة والكتابة - قبل النبوة أو بعدها - إنما هو جهلٌ وتجهيلٌ أعمى نتيجته الدعوات المتواصلة للعَبَث في القرآن الكريم، وتحريفه بحجة (عدم الجمع التوثيقي للقرآن الكريم، وعدم الإشراف الشخصي المباشر من النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه)، وأن القول بإمكانه (صلى الله عليه وآله) من (القراءة، والكتابة) إنما هو الانتصار الفعلي اللازم للقرآن الكريم، وللنبي العالمي الحضاري محمد (صلى الله عليه وآله).

الكلمات المفتاحية: افتراء، الأمية، النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، كشف وتصحيح، في ضوء، نشأة اللغة، القرآن الكريم.

المقدمة:

ونحن نطالع في مكتبة القرآن الكريم فإننا نَمضي نبحتُ بأفقٍ غير محدودٍ ننتظرُ الآتي من التأليفِ ظناً منا بأنَّ الكتب، والدراسات، والبحوث التي كُتبت وتُكتب عن القرآن الكريم نفسه، وعن مُبلِّغِهِ الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) نفسه - على علوِّ كعبها، وتمييزِ قيمتها - لم تُجِرِ المطلبَ الفصلَ الذي به يكونُ كمالُ الأمر، وتامُّه. وهذا مما لا غرورَ فيه؛ لأننا نحن المخلوقين نقرأ فيما يُكتب عن كلام الخالق، وعمَّن كُلفَ تبليغَ كلامه، ونكتبُ في ميدانَيْهما؛ فأنتي للعاجز أن يبلِّغَ شيئاً من كُنهِ المُعْجِز؟! ولا غرورَ من ذلك إذ ((لا يشكُّ باحثٌ مطلعٌ في أنَّ القرآنَ أعظمُ معجزةٍ جاء بها نبيُّ الإسلام. ومعنى هذا أنه أعظمُ المعجزاتِ التي جاء بها النبيون والمرسلون جميعاً))^(١).

وهذه حقيقةٌ نُقرُّ بها نحن إيماناً، لكنها لا تحولُ دونَ البحثِ القرآني والتحقيقِ لتصحيح (الفهم الخاطيء) عن النصوصِ القرآنية؛ فالبحثُ هويَّةُ الإنسان، وطالبُ العلم. وهو بحثٌ وتحقيقٌ قد أمر به الإله المعجِزُ نفسه؛ ليصحَّ إيماننا به ونحن نُنَاجِيهِ بعلم. من هذا المبدأ كنتُ أطوِّفُ في ركنِ الإعدادِ العلميِّ الثقافي الذي يجبُ أن يكونَ عليه النبيُّ الأكرمُ محمد (صلى الله عليه وآله) مذ نشأته حتى تشرفه بالتكليفِ الإلهيِّ رسالياً، وأنا لا أطيقُ أن أقرأ، أو أسمعَ أنه كان يجهلُ القراءة والكتابة حتى عندما بلِّغَ بهذا التكليفِ السامي، وأقرأ وأسمعُ أنَّ غيره ممن سبقَ عصره، أو عاصره - ممن لا يصلُ إلى شيءٍ مما عنده - كان متجلياً بمعرفتهما! وكنتُ لا أصدِّقُ أنَّ معجزةً تقومُ على (التلاوة، والتوثيقِ النصيِّ، والقراءة) يتضمَّنُ نصها - على تعاقبِ نزوله - ألفاظُ (القراءة، والكتابة) وما يتصلُ بهما، ويُدْرَجُ في ميدانَيْهما يكونُ صاحبُ الشأن في حملها، وتبليغها جاهلاً بـ(القراءة، والكتابة) أو بأوليائهما! ولا أرى وجهةً في تكليفه بهذه المعجزة التي تضمنت نصاً يرفضُ القَهْرَ، والإلزامَ بما لا يلزمُ في قوله تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/ من الآية ٢٨٦]، و ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق/ من الآية ٧]؛ فإذا كان التكليفُ بمعجزةٍ قوامها (التلاوة، والتوثيقِ النصيِّ، والقراءة) كان اللازمُ لها أن يُؤتَى صاحبها أداتيَّ القوةِ لتبليغها (القراءة، والكتابة). وإذا كان التكليفُ بها يقتضي عدمَ التمكُّنِ منهما؛ فإنه أدعى للاتهام بالابتداع على عكس ما جرى فهمه وإفهامه، والتقليدُ المتسرِّعُ فيه.

مما مرَّ عقدتُ العزمَ على إثباتِ تمكُّنِ النبيِّ محمد (صلى الله عليه وآله) من (القراءة، والكتابة) مذ نشأته التي شارك فيها مجتمعه أعماله تمكناً لم يذغ صيته، ولم يشتهر به حتى تكليفه السامي، وجهاده أُمَّته والأُمَّمَ التي عاصرتَه في التبليغ بالحسنى، وبالقتالِ الواجبِ.

(١) البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ١١٥.

لقد استدعى الاستدلالُ عندي لعرضِ مشكلةِ هذا البحثِ، وحلّها أن أقيمه على ثلاثة أركانٍ رئيسيةٍ هي:

- ١- أسئلةٌ في إطارِ الموضوع تتحقّقُ الإجاباتُ عنها في كلِّ من البحثِ، وذهنِ القارئِ الواعي.
- ٢- عرضٌ لنشأةِ اللغةِ الإنسانيّةِ التي كانت بنشأةِ الإنسانِ الأولِ نفسه. فإنَّ إلهامَ الإنسانِ الأولِ لُغتهُ شيءٌ، وتعلّمُ تربيتهُ - على تنوعِ أطباقيهم، وترامي أصفاهم - لُغاتهمِ المختلفةِ بحسبِ متطلباتِ حياتهم، وتعاقبُ دهورهم شيءٌ آخرٌ من جهةٍ، وردُّ لِمَا قيل فيها من آراءٍ واهنةٍ من جهةٍ أخرى؛ فوثقتُ سفاهةَ الآراءِ التي تذهبُ إلى أنَّ أصلَ خَلْقِ الإنسانِ هو القردُّ، أو الطيرُ.
- ٣- عرضٌ للنصوصِ القرآنيّةِ، والأحداثِ التاريخيّةِ التي توثقُ للكتابةِ والقراءةِ، وتُقضي إلى تصحيحِ جملةٍ من الأفهامِ الخاطئةِ لبعضِ النصوصِ والمصطلحاتِ القرآنيّةِ.

ومن معطياتِ هذه الأركانِ الرئيسيّةِ الثلاثةِ - وما يتصلُّ بها - يتحصّلُ الكشفُ المناسبُ لحلِّ مشكلةِ البحثِ بمنهجٍ علميٍّ موضوعيٍّ وسليتهُ البحثِ، والتحقّقِ، والتصحيحِ، وغايتهُ الانتصارُ لله سبحانه وتعالى، وللرسولِ الأميِّ الأمينِ (صلى الله عليه وآله)، ونشرُ المعلومةِ الصحيحةِ للعالمِ كلّهُ بعامةٍ، وللباحثينِ والقراءِ وذوي الشأنِ بخاصةٍ. فإنَّ أصبَتْ فاللهُ أسألُ أن يفيّدَ غيري بما أنجزتُ. وإن سهوتُ فحسبي أنني وثقتُ ما أذهبُ إليه وأؤمنُ به غيرَ مني على مُشرفِ هويّتي وانتمائي للغويِّ النبيِّ محمدٍ (صلى الله عليه وآله).

تمهيدٌ/

ثمة أسئلةٌ يجبُ إلقاؤها أساساً لعرضِ مشكلةِ هذا البحثِ، ووضعِ الحلِّ الأمثلِّ لها أجملها بالآتي:

- ١- هل تصحُّ نسبتنا إلى بعضِ الحيواناتِ كالقردِّ، أو الطيرِ في أصلِ الخَلقةِ ونحن (بنو آدم) ؟
 - ٢- هل منحَ اللهُ تعالى أولَ خَلقه مقوماتِ اللغةِ للحوارِ والفهمِ، أو تركه أبكمَ لا يفقه شيئاً ؟
 - ٣- هل يقدرُ اللهُ تعالى على تعليمِ خَلقه أو أحدهم علماً لُدنياً، ومنه القراءةُ والكتابةُ ؟
 - ٤- هل عرفَ العربُ القراءةَ، والكتابةَ قبلَ الإسلامِ ؟
 - ٥- أيمنُ أن يُؤلّى الحكمَ القائمَ على الفكرِ، والحجاجِ، والتبليغِ شخصٌ جهلُ كتابةً ما يستندُ إليه، وقراءتهُ ؟
 - ٦- هل القراءةُ والكتابةُ من لوازمِ الإنسانِ، ومحاسنهُ ؟ والجهلُ بهما من عيوبِ الإنسانِ ؟
 - ٧- هل يُمكنُ مخاطبةُ أميِّ في القراءةِ والكتابةِ بكتابٍ يتضمّنُ أفاضاً للتدوينِ، والكتابةِ، والتوثيقِ، والتلاوةِ والقراءةِ؛ ليبلِّغَ بها أُمَّةً تفتقرُ إليها ؟
 - ٨- هل توقفَ نجاحُ معجزةِ القرآنِ على أميّةِ النبيِّ (صلى الله عليه وآله) بالقراءةِ والكتابةِ ؟
 - ٩- هل تمكّنَ العارفونَ بالقراءةِ والكتابةِ وقتَ نزولِ القرآنِ من معارضةِ شيءٍ من القرآنِ الكريمِ بمحاكاتهٍ مما قرؤوه قبله ؟
 - ١٠- هل آمنَ الناسُ الذين عاصروا النبيَّ محمدًا (صلى الله عليه وآله) به جميعاً ؟ وهل كانت أميئتهُ سبباً لإيمانهم ؟ وهل كفرَ به من كفرَ؛ لأنه كان يقرأ ويكتبُ؛ فابتدعَ القرآنَ من عنده ؟
 - ١١- إذا كان القرآنُ محفوظاً بعنايةِ الله تعالى، ومحفوظاً بكيدِ الأعداءِ المنكرينَ له؛ أفيوكلُ ضبطهُ توثيقاً إلى المؤتمنِ على تبليغِهِ وحفظِهِ وهو النبيُّ (صلى الله عليه وآله) حصراً، أم يتركُ للأمةِ، ولتقريرِ المتصارعينِ فيه ممن ثبت وصفُهُم العدائيُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٤٤] ؟
 - ١٢- لو قابلَ أحدنا اليومَ عالماً كبيراً في ميدانِ الدينِ، والتشريعِ، والإدارةِ وطلبَ إليه أن يقرأَ له نصّاً من التشريعِ الذي جاءنا به، وتفاجأ بأنه أميٌّ لا يعرفُ القراءةَ والكتابةَ؛ فما ردةُ فعلِهِ، وماذا يقولُ له، وعنه ؟
- من هذه الأسئلةِ الاثني عشرَ - وما يتفرّعُ عنها - أَدعو كلَّ متبصّرٍ إلى أن يُمعِنَ الفكرَ فيها، ويُنعِمَ نظرَهُ في قراءةِ ما سأعرضُهُ فيما يأتي بناءً على معطياتِ هذه الأسئلةِ، وألّا يبقى أسيرَ التحجيمِ الفكريِّ التقليديِّ القاضي ب(أميّةِ النبيِّ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) بالقراءةِ والكتابةِ)؛ فيكونَ من معيّةِ (بل نتبّعُ ما وجدنا عليه آباءنا). [لقمان/ من الآية ٢١].

نشأة اللغة الإنسانية:

لا يكاد مطلعٌ يقرأ في مبحثٍ عن نشأة الإنسان ولغته إلا ووقف على جملةٍ من الأساطير، والروايات والقصص التي يأبى العقل والنوق قبولها والحوار والجدل فيها. ومن ذلك فكرة (نشأة الإنسان أبكم)، وأنه كان يتعامل مع من تواجد معه - أول وجوده على الأرض من أبناء جلدته - للتفاهم بلغة الإشارة، أو بإصدار أصواتٍ تُحاكي الحيوانات، والطبيعة التي يعيش فيها، فيعبرُ بها لغيره عن مراده؛ فيفهمُ المخاطبُ هذا المراد^(١).

ويتجلى هذا الفهم السطحي لنشأة الإنسان ولغته في جملةٍ من (الدراسات اللغوية، والكتب) المختصة بأصل المخلوقات التي اكتفي منها - للتوثيق - بما نسب إلى (داروين) من أن أصل الإنسان هو القرد^(٢) وبما ذهب إليه (مايكل كورباليس) في مبحثٍ له بعنوان (ما اللغة) من أن (الطير) هو أصل الإنسان إذ يقول: ((ثناوشني فكرة طائشة بأننا متحدرون لا من القردة بل من الطيور))^(٣)، مُقيداً نفسه بـ(لغة الإشارات) أساساً لهذا الفهم إذ يجعل لها ((كل الصفات الجوهرية للغة المنطوقة... حيث إنها تقدم واحداً من الأسس للفكرة الرئيسة لهذا الكتاب [أي كتاب مايكل كورباليس] ألا وهي أنه حتى اللغة المنطوقة يمكن أن تمتد أصولها إلى الإشارات الصامتة لأجدادنا البعيدين))^(٤).

وعلى الرغم من أن هذا الفهم السطحي المختص بـ(نشأة اللغة) القائمة على (نشأة الإنسان) مردودٌ بالتحقيق والدليل من أيسر سئله؛ إنه صُحح من بعض اللغويين بما هو مقيّد بالفهم الخاطي الآخر أيضاً بيّنه الدكتور (عبد السلام المسدي) بذهابه إلى أن العلم إذا ((لم يُقدم لنا فرضية راجحة في أصل نشأة الإنسان فلن يتسنى بسط احتمالٍ مُرجح في أصل نشأة اللغة... فكل نظرية متصلة بأصل نشأة اللغات البشرية تتضمن افتراض أن الإنسان وجد كائنًا حيًا غير ناطقٍ ثم ألهته الطبيعة، أو الحاجة، أو أي قوة خارجية أن يتكلم باللغة؛ فتكلم بها؛ وإنما هي نظرية مدحوضة منقضة؛ لذلك لم يكن بوسع عالم اللسان إلا أحد أمرين: إما أن يُعلق الموضوع مُرجئاً إياه ريثما يُقدم له العلم نظرية جازمة في أصل نشأة الإنسان، وإما أن يتكلم على مقولة أخرى غير مقولة العلم؛ فيبتناها واعياً أنه قد تخلى عن قميص العلم ساعتها))^(٥).

إن الانتهاء إلى هذا الفهم - المتردد في نشأة اللغة الإنسانية تبعاً للسطحية العقيمة لفهم نشأة الإنسان أساساً - لا يُقبل بحال في ضوء الأدلة العقلية، والنقلية الجلية التي سأذكرها لاحقاً بمشيئة الله تعالى. ومن ذلك ما استنتجه الدكتور (أسعد محمد علي النجار) بعد عرض وافٍ منه لموضوع (نشأة اللغة) إذ أكد ((أن غالبية العلماء يرون استحالة الوصول إلى نتيجة قطعية تُبين الصورة التي بدأ الإنسان يتكلم عليها. والوصول إلى رأي قاطع في هذه المسألة أمرٌ مستحيل. وما توصل إليه العلماء هو ضربٌ من الاجتهاد لا يخرج عن حيز التخمين، أو الافتراض))^(٦).

وعندي إن هذا الاستنتاج لا يقوم أمام الأدلة القاطعة التي سأعرض لها في متن البحث بما يستند إلى أن ((اللغة تُعدّ من الخصائص التي اختص بها الله بني البشر؛ لينفردوا عن سائر مخلوقاته. ومن المتفق عليه أن الإنسان وحده هو القادر على استخدام اللغة منطوقةً ومكتوبةً؛ لتحقيق الاتصال والتواصل بأبناء جنسه على اختلاف بيئاتهم))^(٧).

وتجدُر الإشارة إلى أنني أؤكد أن اللغة قد خلقت تزامناً مع خلق الإنسان الأول نفسه. وهي خلقةٌ تتلو وجود لغةٍ سابقة على (لغة الإنسان الأول) كانت يوم كانت الملائكة؛ فكانت لغتهم إذ هم خلقوا الإنسان إيجاباً بأمر الله تعالى. وقد نقل لنا القرآن الكريم حوارهم اللغوي قبل خلق (آدم/ عليه السلام).

(١) ينظر: العين، الخليل (صرصر)، والخصائص، ابن جني ٦:١، ومباحث في فقه اللغة العربية، د. أسعد محمد علي النجار ١١-١٦.

(٢) ينظر: أصل الأنواع، ترجمة: مجدي محمود الملبجي (أكد المترجم براءة داروين من هذا القول، وأنه نسب إليه خطأ من المترجمين) ٢٥.

(٣) في نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، مايكل كورباليس، ترجمة: محمود ماجد عمر ٤.

(٤) في نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم ٢١.

(٥) محاولة في أصل اللغات، جان جاك روسو، تعريب: محمد محبوب، تقديم عبدالسلام المسدي (مقدمة د. عبدالسلام المسدي) ١٠-١١.

(٦) مباحث في فقه اللغة العربية ١٦.

(٧) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، د. جمعة سيد يوسف ٩.

وتأكيدي هذا يُسَفِّهُ النظريات، والآراء، والدراسات التي قامت على الجهل والتجهيل بمعرفة أصل الإنسان من جهة، وعلى الجهل بنشأة اللغة من جهة أخرى.

وهو تأكيدٌ يسيرٌ بموجب توثيق (الحوار الإلهي-الملائكي) بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/٣٠]؛ فاللغة نشأت مع الملائكة لحظة خَلَقَهُمُ اللهُ تعالى، وبموجب توثيق (الحوار الإلهي-الآدمي) بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة/٣٥]؛ فاللغة نشأت مع (آدم/ عليه السلام) لحظة خَلَقَهُ اللهُ تعالى، وبموجب توثيق (الحوار الآدمي-الملائكي) بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمُ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة/٣٣]، وبموجب توثيق (الحوار الإلهي مع إبليس) بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف/١٢]، و(الحوار الآدمي مع إبليس) بقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف/٢٠-٢١]، ثم انتقل هذا (الحوار) من (جنة الاختبار هذه) إلى الأرض التي بدأ الإنسان الأول (آدم وحواء/ عليهما السلام) نشأته عليها بتوثيق قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف/٢٤-٢٥]؛ لتكون اللغة الإنسانية قد نشأت على الأرض بنشأة ساكنها الأول الناطق بها؛ وبهذا أوجه استتكري لكل ما كنت أقرؤه في الكتب المنهجية للدراسة الابتدائية، والمتوسطة، والإعدادية، وحتى الجامعية وسواها من الكتب المصدرية، والعامية من أن أصل الإنسان هو القرد، أو الطير، أو إنسان (النياندرتال)^(١)، أو إنسان (بلتاون)^(٢)، ومن أن اللغة المنطوقة لم يعرفها الإنسان الأول إلا بعد مراحل متعاقبة من خلقته وتطوره، وأنه كان يتعامل بالإشارة، والصوت التقليدي غير الحرفي، وبالرسم لمخاطبة الآخر^(٣). فهذه هوابط من الأفكار ما هي إلا هباء منثورٌ تجاه التوثيق القرآني المار ذكره.

نشأة اللغة العربية (ونحوها):

مرّت اللغة العربية ونحوها - شأنهما شأن اللغات الإنسانية الأخرى - بنشأتين رئيسيتين هما:

النشأة الأولى/ التطبيق الحواري:

وهو الحديث اليومي الذي جُبِلَ عليه أول من نطق اللغة الإنسانية بعامية، أو العربية بخاصة يُحاورُ أحد أقرانه من أفراد عائلته، أو أبناء بيئته بالهام وتوفيق إلهي مكن الله به أنبياءه (عليهم السلام)؛ فعلموه أقوامهم، ثم بممارسة لفظية يومية لازمة تمكّنت بها تلك الأقوام من التطوير، والإبداع، والاكتماب، والمحاكاة، والتلاحق مع أقوام البيئات الإنسانية، أو العربية إذ ليس من الإنصاف أن يخطر ببال عاقل أن الله تعالى يخلق قومًا، أو أمة - من أول الخلق الإنسانية حتى نهاية الحياة الدنيا - ويجعلهم، أو يجعلها هملاً بلا هاد، ومرشد، ونذير يُحاورهم ويُخاطبهم ويحميهم؛ فينقذهم، فقد قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر/٢٤].

من حقيقة أن اللغة نشأت نشأة الإنسان نفسه فإن التدرج الذي قطعته اللغة العربية في مسيرة حياتها الضارية في القدم قبل الإسلام يُحتم علينا أن نوثق أن بدايتها الحوارية على الأرض إنما كانت على لسان سيدنا إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) فقد نقل عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله: ((أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين))^(٤). وهو ما أقول به. ويروى أن (يعرب بن قحطان) ((هو أول من تكلم بالعربية لإعرابه عن المعاني وإبانته عنها))^(٥). ويرى الدكتور (أحمد سوسة) أن

(١) ينظر: أغاز تاريخية مُحيرة، بول أرون، ترجمة: شيماء طه الريدي ١١. والنياندرتال وإد في شمال غرب ألمانيا يُعزى إليه اكتشاف في العام ١٨٥٦م لأقدم عظام لإنسان على الأرض.

(٢) ينظر: أغاز تاريخية مُحيرة ١٢.

(٣) ينظر: كتاب (الاجتماعيات) للصف الأول المتوسط، د. نجدت عبدالرؤوف عبدالرضا وآخرون، الفصل الأول تاريخ نشوء الحضارات (النقطة ٣) ١١.

(٤) البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبدالسلام محمد هارون ٦: ٢٩٠. وينظر: بحار الأنوار، المجلسي ٧٨: ٦٧٨، وصراع اللغة العربية من أجل البقاء، كاظم محمد النقيب ٦٦.

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ٤٣: ٤٣.

النبي إبراهيم الخليل (عليه السلام) هو أول من تكلم بالعربية^(١). ومن هذا الكشف القاطع بالحقيقة على لسان الصالحين المكلفين إلهياً؛ فإن اللغة العربية قد رُعت بولادة ذات شرفٍ باذخٍ مكنتها على ألسنة الناطقين بها؛ فانتشرت طوال قرونٍ متعاقبة^(٢) حتى وصل مستوى الحوار بها إلى أبلغ أساليبه، وتراكيبه، وجمله، وعباراته، وألفاظه؛ فصار العربُ أهلَ لغةٍ ذات انتشارٍ، وبيانٍ راقٍ، صقلها القرآن الكريم؛ فأضحت بأمرِ الله تعالى لغته التي لا تجوزُ تلاوته إلا بها، ولا تصحُ الصلاةُ من أيِّ مسلمٍ على وجه الأرض إلا بها. فلقد ((أثرت العربية - بفضل القرآن الكريم - في لغات أممٍ أحرَّ مجاورة، ثم استأثرت بألسنة أهلها، وأقلامهم؛ فهجروا لغاتهم الأصلية بعد أن أصبحت العربية المنهل الذي ينهلون منه، والمعين يتزودون [عنه])^(٣).

وقد تعارف العربُ على هذه اللغة بالتطبيق الحواريّ تدريجاً تاركين - بتعاقب الدهور والحقب - أصولها الأولى التي نشأوا عليها، أي أنه حوارٌ لفظيٌّ كان، ثم تراجعت لغته، وازمحلَّت شيئاً فشيئاً، حتى بادت وماتت^(٤)؛ فتجلَّت - بعد العربية البائدة - لغة العربِ البيانية التي رفع الله شأنها بالقرآن الكريم^(٥) وهو القائل: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء/ ١٩٢-١٩٥]، وشرفها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بحديثه، وروعة بيانه وهو القائل: ((أنا أفصحُ العرب - أو أفصحُ مَنْ نطقَ بالضاد - بيدَ أني من قريش))^(٦) الذي ما فتىَّ يُحبُّبُ اللغة العربية لأهلها، ولسواهم بقوله: ((أحبوا العربية ثلاثاً: لأني عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ أهلِ الجنةِ عربيٌّ))^(٧)، وأتحفها الإمام علي (عليه السلام) بالأفصحِ الأعذبِ من بلاغته وهو القائل: ((وإننا لأمرأءُ الكلام، وفيها تشبَّت عروفته، وعلينا تهذلت غصونه))^(٨).

ولا تغابي هنا عن أنَّ ملكة الشعرِ قد بلغت ذروتها^(٩)؛ فجاد الشعراءُ بالمطولات التي سبقت بأبياتٍ، ومقطوعاتٍ، ولوحاتٍ شعريةٍ يسيرةٍ أحادية الموضوع، ثم بمرحلة تقصيدٍ القصيدِ على يدِ (المهلل)^(١٠)، فأضحت تلك المطولات شاعلةً عرب الجاهلية، والإسلام يتداولونها في مجالسهم، وأسواقهم الأدبية، ومنندياتهم، ومطاراتهم الشعرية، حتى إنَّ الإمام علياً (عليه السلام) لما ألحَّ عليه بالسؤال عن أشعرِ العربِ قال: ((فإن كان ولائدُ فالملك الضليل))^(١١). يعني امرأ القيس الشاعرَ الجاهلي.

ومن مصاديق العناية بالشعرِ العربيِّ السامي - بعد أن بلغ العربُ الذروة في نظمهم، والقمة في عرضِ موضوعاته بأساليبِ البيانِ الرائع، وبلاغة القولِ اللامع - أنَّ النبي محمدًا (صلى الله عليه وآله) قال: ((أشعرُ كلمةٍ تكلمت بها العربُ [أو أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ] كلمةٌ أبيد))^(١٢):

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ^(١٣)

وهنا يأتي سطوعُ نورِ النشأة الأخرى للغة العربية بأولى مراحلها بالاختبار الإلهي بعد هذا التمكن اللغوي الأعلى لدى العربِ من فنونِ القولِ والشعرِ إذ لا حجة عليهم بالقرآن الكريم وهم جهلةٌ بمستوى الحديثِ التطبيقيِّ الحواريّ اليوميِّ، إنما الحجة كلُّ الحجة على العربِ قد تحققت بعد أن استوثقوا من ملكة القولِ البليغ، واللسانِ الفصيح. وقد تجلَّى هذا المبلغ اللغوي في تشييد المشركين

(١) العرب واليهود في التاريخ ٢٤١.

(٢) ينظر: صراع اللغة العربية من أجل البقاء ١٠٥-٩٦.

(٣) العربية والتحديث: اتجاهات التأليف اللغوي في العراق، د. محمد عبدالمطلب البكاء ١٣-١٤.

(٤) ينظر في اللغات العربية البائدة: دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح ٥٥-٥٩، وفصول في فقه العربية، د. رمضان عبدالنواب ٢٦-٦٤.

(٥) ينظر: العرب واليهود في التاريخ ١٢٨.

(٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي ٢: ٣٤٠. وينظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تح: محمد علي الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ٤٥: ٦٠.

(٧) المعجم الكبير، الطبراني، تح: حمدي السلفي ١١: ١٨٥. وينظر: المهارث اللغوية وعروبة اللسان، د. فخرالدين قباوة ١٠.

(٨) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ١: ٢٤٤.

(٩) ينظر: دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ت.م. جونستون، ترجمة: د. أحمد محمد الضبيبي ٥.

(١٠) ينظر: المزهر، السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى وزميلييه ٢: ٤٧٤، وتاريخ العرب قبل الإسلام ٩: ٤٣٩.

(١١) نفسه ١: ٤٦٤.

(١٢) صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبدالباقي ٧: ٤٩. وينظر: إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ٤: ٢٥٨، وميزان الحكمة، الريشهري ٥: ٦٠.

(١٣) الكامل في اللغة والادب، المبرد ٢: ١٩. وينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ٤: ٢٤٦، والعقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تح: مفيد محمد قميحة ٢: ٣٠٧.

والكفار القوي كلها لمعارضة القرآن الكريم معرفةً باطنيةً منهم بصدق إعجازه من جهة، ومجاهرةً عنهم بحربه من جهةٍ أخرى^(١) بأية ما أن (الطُفيلَ بنَ عَمْرٍو الدَّوسِي) كان يضعُ (كُرسفًا)^(٢) في أذنيه خشيةً أن يتأثر إذعانًا للقرآن الكريم، والدعوة النبوية حتى انتبه إلى نفسه مُراجعًا فقال: ((وانكُلْ أُمِّي؛ واللهِ إني لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح؛ فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقولُ؟ فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته))^(٣)، وبعد هدايةٍ وإيمانٍ أسلم طائعًا^(٤).

النشأة الأخرى/ التوثيقُ التعديدي:

وهو مجموعةُ الجهودِ النظريةِ التي مرت بمراحلٍ خمسٍ يقومُ تاليها على مُعطياتٍ سابقها أراها على التعاقبِ الآتي:

أولاً/ مرحلةُ التنزيلِ القرآني:

وهي مختصةٌ بالنبِيِّ محمدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) الذي أمره اللهُ تعالى بجمع القرآن وتوثيق حفظه؛ فكان هو نفسه يكتبُ - عن عِلْمٍ لَدُنِّي - بما تحصَّل لديَّ من معرفةٍ وإيمانٍ، أو يأمرُ كاتبَ الوحيِ الأوَّلَ أميرَ المؤمنين عليًّا بنَ أبي طالبٍ (عليه السلام)^(٥) بهذا الحفظِ التوثيقيِّ بكتابةِ القرآن. ولاشكَّ في أنَّه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كان يوجِّهُ الإمامَ عليًّا (عليه السلام)، أو أصحابه (رضي اللهُ عنهم) من كَتَبَةِ الوحيِ المؤمنينِ المؤتمنينِ على القرآنِ معرفيًّا بالأصولِ اللغويةِ والنحويةِ وما يتصلُ بها؛ ليكونَ نظْمُ القرآنِ معروفًا عندهم يؤدي إلى فهمِ باطنه ودلالاته؛ فكانوا هم يُبصِّرونَ غيرهم به. ومصدقُ رأينا هذا أن القرآنَ الكريمَ إنما نُزِّلَ باللغةِ العربيةِ، وبما انتظمته لغته من أساليبٍ وتراكيبٍ مُعجزةٍ تستدعي عن هؤلاءِ المؤثِّقين، وأولئكِ المُصرِّين السَّوَالِ، والنقاشِ، والجوارِ بعد الانبهارِ وتفاوتِ الجرأةِ بالتحدي له والفشلِ إزاءه. وهذا السَّوَالُ لا يخلو من بحثٍ في لغةِ القرآنِ ومستوياتها، وفي نحوهِ وأسرارِ تراكيبه. وقطعًا فإنَّ المسؤولَ الأوَّلَ هو النبيُّ محمدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ).

واستنادًا إلى العقلِ والاستدلالِ القائمِ على أعمالِ الفكرِ فإنني أسألُ أن كيف يتقبلُ المسلمون القرآنَ باللغةِ العربيةِ - وهم من وصلوا إلى الذروة في نظم الشعرِ، وأضحوا أهلَ بيانٍ وتبيين - ولا يسألون عن لغته، ونحوه، وأساليبه، وتراكيبه، ونظمه؟! وهل يكونُ تفسيرُ للقرآنِ بلا معرفةٍ بلغته، ونحوه، ودلالاتهما؟!.

إنَّ العقلَ، والنقلَ ليوثِّقُ أنَّ أولَ مفسِّرٍ هو النبيُّ محمدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)؛ إذاً يكونُ أولُ لغويٍّ ونحويٍّ هو النبيُّ أيضًا، يقولُ عارفًا فيفهمُ، وهم يحفظون، أو يكتبون. وقوامُ هذه المرحلةِ (المنهجُ الوصفيُّ الدلالي).

ومن البدهيِّ اللازم أن نوثِّقُ رأينا هذا بالمساندِ الآتية:

١- ورد الجذرُ (قرأ) في (١٣٧/ مئةٍ وسبعةٍ وثلاثين)^(٦) موضعًا في القرآن الكريم. فكيف ب(نبيٍّ لا يعرفُ القراءة، وأمةٍ لا تعرفُ القراءة) أن يستسيغا قراءةً تشريعٍ بينَ جديدِ قوامه (القراءة، والخطاب، والجوارِ ثم التوثيق)؟!.

وحقيقٌ على ألا أتجاوزَ معقَدَ القولِ في هذا الموردِ؛ فإني أعرِّضُ فيه لأول ما نزل من القرآن الكريم وهو قولُ تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق/١] بصرفِ النظرِ عن الآراءِ الأخرى التي قيلت في تحديدِ أول ما نزل من القرآن الكريم^(٧)؛ لأنَّخذَ منه المنارَ الأوَّلَ لإثباتِ تمكِّنِ النبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) من القراءة، والكتابة.

إنَّ ما ورد من حديثٍ عن أمِّ المؤمنين عائشةَ (رضي اللهُ عنها) من أنَّ النبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قد ((جاءه الملكُ؛ فقال: اقرأ؛ فقال: ما أنا بقارئ)). قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثانيةً

(١) ينظر: المرسل - الرسول - الرسالة، السيد محمد باقر الصدر، ودلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية، د. علي عبدالفتاح الحاج فرهود (التوطئة).

(٢) قطنًا.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، تح: عمر عبدالسلام تدمري ٢: ٢٢٦. وينظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣: ٩٩، والحفاظ على سلامة اللغة العربية، د. أحمد مطلوب ٩-١٠.

(٤) ينظر: السيرة النبوية ٢: ٢٢٧.

(٥) يُنظر: تاريخ الطبري، محمد بن جرير، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ٥: ٢٤، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، تح: يوسف البقاعي ١: ١٤٠، وبصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار ٢١٨، ومكاتب الرسول، الأحمد المياحي ١: ١٢٥، وجذور تدوين القرآن الكريم ٨٦ - ٨٩.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، محمد فؤاد عبدالباقي ٦٦٣ - ٦٦٤.

(٧) ينظر: معاني القرآن، الفراء، تح: محمد علي النجار ورفيقه ٣: ٢٧٨، وتاريخ يعقوب، أحمد بن أبي يعقوب، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم ٢: ٢٢، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١: ٤١٩، والبرهان، الزركشي ١: ٤٧، وإشكالية البعد التاريخي للقرآن، د. عادل عباس النصاروي ٦٣.

حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني؛ فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم﴾ [العلق/١-٣]، فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده؛ فدخل على خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، فقال: زملوني. وكثرها ثلاثاً حتى ذهب عنه الروع، فأخبر زوجته (خديجة) بالخبر، وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت (خديجة): (كلأ والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسي المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر)، ثم انطلقت به إلى عمها (ورقة بن نوفل بن عبد العزى) وكان قد تنصّر، وكنت الإنجيل بالعبرانية، وبلغت به الشيخوخة حدّها الأقصى. وبعد أن قص عليه النبي (صلّى الله عليه وآله) ما أصابه، أجابه أن هذا الذي ترى هو الناموس الذي أنزل على موسى. ليبتني فيها جذع. ليبتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): أو مخرجي هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً^(١) لهُو حديث مردود من جهة أن هذه الرواية تطرد نفسها بنفسها لتسطيحها الرسالة السماوية ونبئها. وأنا أعجب من جرة مصطنعها، وناقليها يؤكدونها على ما فيها من هتات في المضمون، ومن ركة معنى من نحو (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني)، ونحو (فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده)، ونحو (وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت (خديجة): (كلأ والله لا يخزيك الله أبداً))!

وقد ردّها السيد الطباطبائي بقوله: ((والقصة لا تخلو من شيء. وأهون ما فيها من الإشكال شك النبي (صلّى الله عليه وآله) في كون ما شاهدته وحياً إلهياً من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله، وتردده بل ظنه أنه من مسّ الشياطين بالجنون. وأشكّل منه سُكُون نفسه - في كونه [ذا] نبوة - إلى قول رجل نصراني مُترهب! وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عَنَدِي مَا تُسْتَعْجَلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام/٥٧]. وأي حجة بيّنة في قول (ورقة) وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف/١٠٨]؟ فهل بصيرته (صلّى الله عليه وآله) هي سُكُون نفسه إلى قول (ورقة)؟ وبصيرته من اتبعه سُكُون أنفسهم إلى سُكُون نفسه إلى ما لا حجة فيه قاطعة؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء/١٦٣]. فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تقصه هذه القصة؟ والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى^(٢)، علاوة على أن الذي روي عنه هذا الحديث هو (يحيى بن بكير) الذي لا يُعد من الموثوق بهم عند الباحثين المختصين في علم الرجال^(٣).

وحقيق على ألا أترك هذه الفرية الملققة تاريخياً على النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) من هذه القصة الموتورة؛ فإنني أعرض الآتي:

لماذا يُجيب النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) بعبارة (ما أنا بقارئ) وهو ينفي قدرته على القراءة - كما يدعي من قال: (إنه أمي لا يقرأ ولا يكتب) - لو كان قد طُلب إليه أن يردّد (شفهياً) الكلام المسموع (شفهياً)؟ فهل قدّم إليه الوحي (ورقة، أو لوحاً، أو صحيفة) كتب عليها النص المذكور؛ فتعذر عليه الأمر لأميته القرآنية؟! (فالكاتب التدوين، والقراءة قراءة الشيء المدون^(٤)) في كتاب. وهذا المعنى للقراءة قد ورد بمصداق قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء/٩٣]؛ فعبارة (كتاباً نقروه) في هذا النص تُفصِح بجلاء عن أن ما (يقرأ) هو ما يكون (مكتوباً).

(١) دراسات في الكافي للكليبي، والصحيح للبخاري، هاشم معروف الحسني ١٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي. وينظر: تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة: د. جورج تامر، تعديل: فريديريش شفالي ١٤:١.

(٣) يُنظر: دراسات في الكافي للكليبي، والصحيح للبخاري ١٠.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ٢٧٣.

لم يرد إلينا في مصدرٍ أن الأمرَ الإلهيَّ لبدايةِ الوحيِّ والتبليغِ ب(اقرأ) قد جاء في (ورقةٍ، أو لوحٍ، أو صحيفةٍ)؛ ليقطعَ الباحثون بأنَّ الجهلَ بالقراءةِ كان مسوِّغاً لهذه الإجابة، فلا يوجدُ نصٌّ مكتوبٌ على ورقةٍ؛ إذًا؛ لا يوجدُ مصداقٌ لعبارةِ (ما أنا بقارئٍ). ولأنَّ نطقَ النبيِّ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) كان سليماً لم يُشبَّ بشائبةٍ؛ فلا مسوِّغٌ لعدمِ إجابتهِ الشفهيةِ بترديدِ النصِّ القرآنيِّ الذي ألقاهُ الوحيُّ عليه في لقاءِ التبليغِ الأولِ هذا. إذًا؛ لا صحةَ ل(ما أنا بقارئٍ)، ولا لهذه القصةِ المفتعلةِ كلِّها^(١).

٢- ورد الجذرُ (كَتَبَ) في (٣٢٠/ ثلاثمئةٍ وعشرين) موضعاً في القرآن الكريم^(٢). ولا يُعقلُ أنَّ نبيّاً لم يعرفِ الكتابةَ أساساً، وأمّةً جاهلةً بالكتابةِ - تماماً، أو غالباً - يتقبلان أخباراً وتوجيهاتٍ وتفصيلاً تنفيذياً (عقائدياً، وتشريعياً، وتنظيمياً للحياة) بالكتابة. هذه المواردُ تُفصحُ عن تداولٍ واضحٍ لأدواتِ الكتابةِ، ومعرفةٍ بالكتابة^(٣)، و((لا خِلافَ في أنَّ التدوينَ كان معروفاً عند العربِ قبلَ (الإسلام))^(٤) (بأيةٍ ما وثقه الباحثون في هذا الميدانِ من انتقالِ ((الكتابةِ من الأنبارِ والحيرةِ على يدِ بشرٍ بنِ عبدالمك... [الذي] خرج إلى مكةَ وتزوج بنتَ حربِ بنِ أميةَ أختِ أبي سفيانٍ؛ فعلمَ جماعةٌ من أهلِ مكةَ الكتابةَ؛ فكثُرَ من يكتبُ بها من قريشٍ))^(٥). ومن المسلمِّ به عندني أنَّ العربَ كانوا يعرفون فنونَ اللغةِ وقواعدها، وأساليبها، وفنونَ الشعرِ وبحوره قبلَ الإسلام؛ فليس من المعقولِ أن يتمكّنَ العربُ بعدَ الإسلامِ - مهما أوتوا من قدرةٍ فكريةٍ - من هذه الطفرةِ العلميةِ الكبرى في المعرفةِ اللغويةِ، والشعريةِ وقوانينِ كلِّ منهما كما نجدُه عند الخليلِ من إنجازِ لكتابِ (العين)، و(بحورِ الشعر)^(٦).

تتجلّى حقيقةُ معرفةِ العربِ بالكتابةِ قبلَ الإسلامِ، وإبانَ البعثةِ المباركةِ بأنَّ اللهَ تعالى قد ألزمَ المسلمينَ بكتابةِ (وثيقةِ الدِّينِ) بين (الدائنِ والمدِينِ) تنظيمياً للمعاملاتِ التجاريةِ فيما بينهم، وضمناً لحقوقهم يومَ لم يكن هذا التنظيمُ، وهذا الضمانُ موجوداً عندهم إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيحْسٍ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِن لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٨٢]. وهو أمرٌ يتضمنُ تفاصيلَ تشريعيةً إجرائيةً مهمةً جداً تجعلُ من كتابةِ (وثيقةِ الدِّينِ) من مقدماتِ الالتزامِ الأخلاقيِّ الذي يضمنُ سلامةَ المجتمعِ، وحفظَ الحقوقِ، وتيسيرَ قضاءِ حاجةِ المضطرِّ.

فإذا كان موضوعُ (الدِّينِ) بهذا الحضورِ من التوجيهِ الإلهيِّ، والتبليغِ النبويِّ؛ فكيف بالقرآنِ الكريمِ (وثيقةِ الهدايةِ السماويةِ الشاملةِ الناسخةِ الشرائعِ والكتبِ السماويةِ السابقة) ألا من إلزامِ بكتابهِ وتوثيقِ نصِّه على الورق؟! أيخشى على المالِ والحقوقِ الشخصيةِ والمجتمعِ من الضياعِ والصراعِ؛ فيؤمَرُ بتوثيقِ (الدِّينِ)، ولا يخشى على القرآنِ الكريمِ - كلامِ اللهِ تعالى - من تحشيدِ الجهودِ والإمكاناتِ لمحاربتِهِ وتزييفِهِ من أمّةٍ، ومن عالمِ إنسانيٍّ لم يُقدِّمِ بإيمانٍ، ولا برضا، ولا بأدنى قناعةٍ على تقبُّلهِ والإذعانِ له قدرَ ما اتهموا من بلِّغِ به بأنّه (شاعرٌ، وكاهنٌ، ومجنونٌ، وساحرٌ)، وقدَّرَ ما حاربهو فعلاً؟!!

قال الشيخ (محمد جبار البهادلي) في تأكيدِ أمرِ كتابةِ النبيِّ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) القرآنِ الكريمِ بشهادتهِ شخصياً: ((فإن قال قائلٌ: إنها أموالُ الناسِ واللهُ أرادَ الحفاظَ عليها؛ أقولُ: الأمرُ ورد في القرآنِ فلا بدَّ من المحافظةِ على الدستورِ بكتابهِ حتى

(١) ينظر: النص القرآني وسلطة التراث، د. عادل عباس النصراوي ١٤-١٨. وقد أسعدني كثيراً ما قرأته من توارِد أفكارٍ متطابقةٍ بيني وبين الدكتور (عادل النصراوي) يطمئنُ إليها القلبُ في الانتصارِ لنبيِّنا الأكرمِ (صلى الله عليه وآله) في فهمنا لهذا الموضوعِ المُضللِ فيه.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٧١١ - ٧١٥.

(٣) يُنظر: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، د. حسين نصار ٢٣، والمصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، د. عز الدين إسماعيل ١٣ وما بعدها، ودراسات في الكافي للكلميني، والصحيح للبخاري، الفصل الأول (لمحات عن الكتابة والحديث ومراحل تدوينه) ١٢ وما بعدها.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٨.

(٥) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبدالمعنى خفاجي ١٥٢. وينظر ما بعدها.

(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٩.

يستمر الحفاظ على حقوق الآخرين، ويتيقن الناس أن هذا الأمر مكتوب في الدستور^(١). أي أن لزوم (كتابة الدين) حكم ورد في آية قرآنية؛ فهل تلتزم كتابة هذا الحكم معاملةً، ولا تلتزم كتابة النص الذي تضمنه؟!

إن (في ورود هذه الألفاظ [كُتِبَ] ومشتقاته) في [القرآن الكريم] - معبرة عن معاني مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم - دلالة على أن الجاهليين كانوا على علم، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص أهل الأخبار من الجهل والأمية^(٢).

ومن الحقائق - ذات الصلة - التي أثبتها الباحثون أن لفظة (الكُتَاب) قد وردت (في العربية... ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة. وهي من الألفاظ العربية المستعملة في العهد الأولى من الإسلام. وعندنا أنها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية... وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة... أنهم كانوا من المعلمين، وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة، منهم على سبيل المثال (بشر بن عبد الملك السكوني)، و(سفيان بن أمية بن عبد شمس)، و(أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة)، و(عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد) وقد كان يُسمى (الكاتب)، و(غيلان بن سلمة بن متعب الثقفي) وهو مخضرم؛ مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين^(٣).

وقد ذكر الجاحظ أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) قال: ((إذا كتب أحدكم فليترّب كتابه))^(٤)، أي ((إذا انتهى من كتابة كتابه فليضع التراب عليه؛ ليُجفّف حبره))^(٥).

٣- ورود ألفاظ (الكتابة)، و(القراءة) وأدواتهما في القرآن الكريم لهو الدليل الأوضح على خطاب عرب الجزيرة بعامة، وقريش بخاصة بما هو متعارف عندهم؛ فإن الله تعالى قد أقسم بأداة الكتابة، وبما يُكتب معاً في قوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم/١]. وليس من المقبول عقلاً ومعرفة أن النبي (صلى الله عليه وآله) والمجتمع الذي بلغ القرآن آنذاك لا يعرفون أداة الكتابة (القلم)، ولا يعرفون ما يُكتب من قراطيس (سُطُرٌ سطوراً منظّمة معروفة على وفق فهم لغوي متكامل) بهذه الأداة!

لقد أكد النص القرآني ما يوثق هذه المعرفة الترابطية بين الإنسان والقلم في الحياة المعرفية إذ قال عز من قائل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق/٣-٤]. قال (الطبرسي): ((أي علّم الكاتب أن يكتب بالقلم، أو علّم الإنسان البيان بالقلم، أو علّم الكتابة بالقلم. امتنّ سبحانه على خلقه بما علّمهم من كيفية الكتابة بالقلم لما في ذلك من كثرة الانتفاع فيما يتعلق بالدين والدنيا. قال (قتادة): القلم نعمة من الله عظيمة لولاه لم يقم دين، لم يصلح عيش))^(٦).

إن الذين تجرؤوا فاتهموا النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) بأنه (شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون) لهم أكثر جرأة بالظن الباطل عليه (صلى الله عليه وآله) وهم يسمعون (القلم) - كما مر - ويسمعون (الصحف) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى/١٨-١٩] لو كانوا يجهلون بهما من جهة، أو كانوا عارفين بأمية القراءة والكتابة لدى النبي (صلى الله عليه وآله)، وبجهله بماهية (القلم)، و(الصحف) من جهة أخرى! إنهم - لمعرفتهم بماهية أولاً، ولمعرفتهم بعلمه (صلى الله عليه وآله) ب(القلم، والصحف، والقراءة، والكتابة) ثانياً - لم يصدر عنهم افتراء يُبين سخريتهم من ورود نصوص قرآنية تقوم على ذكر أدوات القراءة، والكتابة.

((وفي لغة الجاهليين مفردات تُستعمل في القراءة والكتابة مثل (قلم، وقرطاس، ودواة، ومداد، ولوح، وصحف، وكتاب، ومجلة وغير ذلك، لا يُشك في استعمال الجاهليين لها؛ لورودها في القرآن الكريم - وورودها فيه دليل على استعمالهم لها - وورد بعضها

(١) جذور تدوين القرآن الكريم ٨٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣١٤.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٩١ - ٢٩٢. وينظر: المحبّر، محمد بن حبيب البغدادي، تح: د. إيلزة ليختن شتيتير ٤٧٥.

(٤) البيان والتبيين ٣: ٢٠٤.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٩.

(٦) مجمع البيان ١٠: ٣٥٦.

أيضاً في الحديث الشريف، وفي الشعر الجاهلي. ويُفيدنا حصرُ هذه الألفاظِ وضبطها في تكوينِ رأيٍ علميٍّ صحيحٍ سديدٍ في القراءة والكتابة عند الجاهليين^(١).

وإنَّ توظيفَ كلمةٍ (قرطاس) - مثلاً - في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام/٧] لهو (دليلٌ على وقوفِ العربِ عليها. وهي من الألفاظِ التي دخلت إلى العربية من مصر أو من بلاد الشام، حيث استورد أهل مكة...مختلف التجارة منها، ومنها القراطيس^(٢)).

وقد فسّر العلماءُ كلمةَ (رق) في قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ [الطور/٢-٣] (بأنه ما يُكتبُ فيه، شبه الكاغد، أو جلدٌ رقيقٌ يُكتبُ فيه، أو الصحيفةُ البيضاء... وقد كان الكُتَّابُ يستعملون (الرق) في المراسلات، وفي السجلات، وفي الكتب الدينية^(٣)).

نعم لقد انتصر النبي (صلى الله عليه وآله) على الكفار وهم يفترون عليه اختلاق القرآن الكريم من عنده؛ إذ لم يرد خبرٌ واحدٌ يُثبتُ أنَّ أحدَهم علّمه (القراءة، والكتابة)؛ لأنَّ علّمه بهما لُدُنِيٌّ بِالِهَامٍ من الله تعالى. وهذا أصدقُ دليلٍ على إعجاز ما بلّغ به؛ فهو لم يشتهر بأنه كان كاتباً، أو عارفاً بتوثيق الكتب الرسالية السابقة بفنون الكتابة والتأليف، وبفنون الخط العربيِّ وامتداده^(٤). فلو كان كذلك (شهرةً، ومهنةً، وصناعةً) لاتخذَ منه هؤلاء المناوئون ذريعةً أخرى للطنين، والإعلام المزيف. وهذا ما كشف عنه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآتَابِ الْمُطْبُورِينَ﴾ [العنكبوت/٤٨].

وهنا أودُّ أن أُبينَ ما أقرؤه قراءةً جديدةً عن هذا النصِّ الكريم من دلالة باطنية عميقة لا تقف عند حدود المعنى السطحيِّ الظاهر منه؛ فبالندبِ المعرفيِّ الاجتهاديِّ أجدُ أنَّ هذا النصَّ يوثقُ (نفي) اتصافِ النبي (صلى الله عليه وآله) بتلاوة كتابٍ تشريعيٍّ من قبل القرآن الكريم؛ فهو إذاً يوثقُ أنه الآن (يتلو كتاباً هو الأول الذي يعنيه وهو القرآن الكريم)، بمعنى أنَّ الدلالة العميقة (لما كنت تتلو من قبله من كتاب) هي (أنت تتلو الآن كتاباً). ألم يوثقِ الله تعالى تلاوته للقرآن بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة/٢]؟ فهو لم يتلُ (قبل القرآن) شيئاً، ولا أثر عنه ذلك، لكنه الآن (يتلو) القرآن المكتوب في هذه الصحف المطهرة. والنصُّ يوثقُ (نفي) خطّه (كتابتَه) بيده كتاباً تشريعياً من قبل القرآن الكريم؛ أي أنه الآن (يخطُّ) (يكتبُ) بيده كتاباً تشريعياً هو القرآن الكريم). وهذا الفهم الدلالي الجديد ينأى بهذا النصِّ الكريم عن أن يكون مُجمّداً في قالب الاستدلال به على أمية القراءة والكتابة كما فهم خطأ.

ومن اليسير أن أجدَ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج/٢١-٢٢] ما يؤكدُ أنَّ القرآن الكريم كان يُكتبُ بالأمر النبويِّ الحريص في صحفٍ مطهرة كما هو قرآنٌ مجيدٌ بالأمر الإلهي في اللوح المحفوظ.

وقد أتحنفا الدكتور (أحمد صبحي منصور) بيد السبق إلى الذود عن القرآن الكريم، وعن النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، والانتصار والانتصاف لهما إذ قال في مقدمة كتاب (إعادة قراءة القرآن) للمستشرق الفرنسي (جاك بيرك) ما نصّه: ((المستشرق الفرنسي (جاك بيرك) كان مشهوراً بصدافته لشيوخ الأزهر...ترجم القرآن للفرنسية، ثم كتب بحثاً بالفرنسية بعنوان (إعادة قراءة القرآن) طالب فيه بإعادة كتابة المصحف وفق^(٥) ترتيب النزول، وردّ نفس الهراء^(٦) القائل بأنَّ القرآن كان يكتبه الصحابة على الرقاع، والجلود وذلك بحضرة النبي محمد الذي كان لا يقرأ ولا يكتب. لم يستطع أحدٌ من أصدقاء (جاك بيرك) في الأزهر أن يفند دعواه في إعادة كتابة القرآن، وتغيير مواضع^(٧) آياته. قام الدكتور (وائل غالي شكري) بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، وطلب مني^(٨) الناشر أن أكتب

(١) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥٢.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٦٢.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٤) ينظر في اختلاف الآراء في تمكن النبي (صلى الله عليه وآله) من القراءة والكتابة من عدمها: تاريخ القرآن، نولدكة ١١-١٩.

(٥) الصواب (على وفق).

(٦) الصواب (الهراء نفسه).

(٧) الصواب (مواضع).

(٨) الصواب (طلب إلي).

مقدمة للكتاب أُرِدُ فيها على المؤلفِ المستشرقِ (جاك بيرك). كتبتُ . متطوعاً . مقدمة الكتاب، محللاً ومنقداً منهجَ (جاك بيرك) في دعواه، ورددتُ عليها. وفي أساس الردِّ أثبتُّ خطأَ الزعمِ الذي قاله علماءُ التراثِ بأنَّ النبيَّ محمداً (عليه السلام) لم يكن يقرأ، ولم يكن يكتبُ، وأنَّ هناك مَنْ كتبَ الوحيَ؛ لأنه بناءً على هذا الزعمِ الباطلِ بنى (جاك بيرك) دعواه. بل على أساسِ هذا الزعمِ الباطلِ يتأسَّسُ الطعنُ في القرآن... باختصارٍ فإنَّ أكلوبةً أنَّ محمداً (عليه السلام) لم يكن يقرأ، ولم يكن يكتبُ، وأنَّ هناك كتابةً للوحي - هذه الأسطورة الكاذبة - هي أساسُ الطعنِ في القرآن. ثم جاء (جاك بيرك) وقال: إذا كان القرآنُ مكتوباً بهذا الترتيبِ غيرِ المنطقي بيدِ كَتَبَةِ الوحي فلماذا لا نُعيدُ كتابتهُ بترتيبِ موضوعيٍّ، أو حَسَبِ السنين. رددتُ عليه، وتم نشرُ الكتابِ عن طريقِ (دارِ النديم) للنشرِ في أواسطِ التسعينيات. في حينه كتبَ الكاتبُ الصحفيُّ (حسين جليل) في (الأهرام المسائي) مُشيداً بالفكرة الجديدة التي أثبتتُ بها، وقوة الاستشهاداتِ التي تؤيدُ أنَّ النبيَّ محمداً (عليه السلام) كان يكتبُ ويقرأ، وأنه هو الذي كتبَ القرآنَ بنفسه^(١).

ويرى الدكتور (أحمد صبحي منصور)^(٢) أنَّ كلمةَ (الأمِّي)، و(الأميين) الواردة في القرآن الكريم إنما تُقابلُ كلمةَ (أهل الكتاب) دلالياً، ولا تُدلُّ على الجهلِ بالقراءة، والكتابة؛ ف(أهل الكتاب) هم الذين ينتسبون إلى كتابِ سماويٍّ، أما (الأمِّي) فهو الذي لا ينتسبُ إلى كتابِ سماويٍّ، أو الذي لم يُنزلْ عليه كتابٌ سماويٍّ، وكذلك الأميون، مستدلاً لرأيه هذا بالقرآن الكريم راداً به على اعتراض من يذهبُ إلى أنَّ (الأمِّيَّة) تعني الجهلَ بالقراءة والكتابة إذ يقول: ((ولكنَّ القرآنَ يصفه بأنه (أمِّي) أي لا يعرفُ القراءة والكتابة. وهذا هو مفهومُ (الأمِّي) في التراث. ولكنَّ مفهومَ (الأمِّي)، و(الأميين) في القرآن يعني الذين لم يُنزلْ عليهم كتابٌ سماويٍّ سابقاً؛ فاليهودُ والنصارى هم أهلُ الكتاب، أو الذين أوتوا الكتاب، وغيرهم من سُكَّانِ الجزيرة العربية هم (أميون) أي لم يأتيهم كتابٌ سماويٍّ قبلَ القرآن. وبهذا كان يُميِّزُ القرآنُ بين أهلِ الكتابِ العربِ وبقية العربِ الذين لم يكونوا يهوداً، أو نصارى. وقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران/ من الآية ٢٠]، و﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيُنَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران/ ٧٥]...ف(الأميون)...العربُ الذين لم يأتيهم كتابٌ سماويٍّ في مقابلِ (أهل الكتاب) العرب... والخالصة أنَّ كلمةَ (أمِّي) لا تعني الجهلَ بالقراءة والكتابة، وإنما تعني غيرَ اليهود والنصارى. المهمُّ أنَّ نفهم القرآنَ بمصطلحاته هو، وليس بمصطلحاتِ التراث. والمهمُّ أيضاً أنَّ وصفَ النبيِّ محمدٍ [صلى الله عليه وآله] بـ(الأمِّي) يعني الذي لم يُنزلْ عليه كتابٌ من قبلِ القرآنِ مثلَ قومهِ الأميين^(٣).

وأنا مع ذهابي إلى هذه الحقيقة متمسكاً بها من أنَّ النبيَّ محمداً (صلى الله عليه وآله) كان يقرأ ويكتبُ بإعجازِ إلهيٍّ مختصٍّ، وتعليمِ لُدُنِيٍّ خالصٍ، ولا غرورٍ من هذا التعليمِ فهو أعلى شأنًا عند الله تعالى من ذي القرنين (عليه السلام) الذي حباه الله تعالى بالعلمِ اللُدُنِيِّ إذ قال عنه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف/ ٦٥]، وهو الذي كان يُشرفُ على كتابةِ القرآنِ الكريمِ بنفسه، أو يكتبُه، أو يكتبُ منه بيده الشريفة الأمينة؛ فإنني لا أوافقُ الدكتور (أحمد صبحي منصور) بذهابه إلى ((أنه ليس هناك كتابةٌ للوحي. بل هناك كاتبٌ وحيدٌ للوحي هو محمدٌ [صلى الله عليه وآله] نفسه. وهو وحده المؤمنُ على كتابةِ القرآن... لأنَّ للقرآنِ الكريمِ نوعيةً خاصةً من الكتابة. وهذه الكتابةُ القرآنيةُ لا تزالُ حتى الآنَ مختلفةً عن الكتابةِ العربيةِ العاديةِ. وهي ما يُعرفُ الآنَ بالرسمِ العثمانيِّ نسبةً إلى الخليفةِ الثالثِ (عثمان بن عفان). والذي حدث أنَّ النبيَّ [صلى الله عليه وآله] أتمَّ بنفسه كتابةَ وجمعَ القرآنِ وترتيبه في نسخةٍ أصليةٍ، ومات تاركاً هذه النسخةَ لدى أمِّ المؤمنين (حفصة). وكانت تلك النسخةُ الأصليةُ مرجعاً للتلاوة. وفي عهدِ (أبي بكرٍ) قام بنسخ - أي كتابة - أولِ مصحفٍ. فالذي فعله (أبو بكرٍ) ثم (عثمان) هو نسخُ المصحفِ من النسخةِ القرآنيةِ

(١) إعادة قراءة القرآن، جاك بيرك، ترجمة: د. وائل غالي شكري، تقديم د. أحمد صبحي منصور (نص التقديم).

(٢) ينظر: النبي محمد عليه السلام كان يقرأ ويكتب، وهو الذي كتب القرآن بنفسه، د. أحمد صبحي منصور (بحث منشور على موقع أهل القرآن الإلكتروني بتاريخ ٦/٨/٢٠٠٦).

(٣) النبي محمد عليه السلام كان يقرأ ويكتب، وهو الذي كتب القرآن بنفسه. وينظر: النص القرآني وسلطة التراث ١٨-٢١.

الأصلية المكتوبة بخط النبي [صلى الله عليه وآله]، وليس كتابة أو جمع القرآن^(١)؛ لأن الحقائق النقلية والعقلية جلية بتوثيق جهود كتاب الوحي المخلصين من جهة، ويذكر من تطفّل على هذا التشريف من جهة أخرى^(٢).

إنّ الفكرة القائمة زعمًا على أساس أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكتب القرآن بنفسه، أو لم يكتب بين يديه بتوثيقه وموافقه، والراسخة على وهم أنه كُتِبَ وجمع بعده إنما هي فكرة تهدف إلى الطعن في القرآن الكريم نفسه، وإلى جعله نصًا بشريًا بنظمه وترتيبه كالرأي المعادي الذي انتهجه الكفار المعارضون للقرآن. ومن مصاديق استنتاجي هذا ما قرره (سعيد ناشيد) من أنّ القرآن قد تحسّل من ((ثلاث ظواهر متباينة لا يجوز الخلط بينها: ١- الوحي الرباني (وهو يُحيل إلى الصور الوحيانية التي استشعرها الرسول وتمثلها... وفي الأخير فإنّ كلام القرآن هو كلام النبي المؤيّد بالإرادة الإلهية)... ٢- القرآن المحمدي (وهو ثمرة جهد الرسول في تأويل الوحي، وترجمة الإشارات الإلهية إلى عبارات بشرية انطلاقًا من وعيه، وثقافته، ومزاجه، وشخصيته، وقدراته التأويلية)... ٣- المصحف العثماني (وهو ثمرة جهد المسلمين في تحويل القرآن المحمدي - خلال مرحلة أولى - من آيات شفوية متناثرة إلى مصاحف متعددة، ثم - خلال مرحلة ثانية من مصاحف متعددة إلى مصحف واحد وجامع وفق^(٣) نمط معين من التأليف، والتبويب، والترتيب، وبحسب قواعد محددة في اللغة والكتابة والخط))^(٤).

مما مرّ نؤكد الحقيقة الناصعة من أنّ القرآن الكريم قد جمع زمن النبي (صلى الله عليه وآله) بتوثيقه بأمر الله تعالى^(٥) بأية ما أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: ((إني مُخَلَّفٌ فيكم القليلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيّتي أو سنّتي في رواية)). وإثما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض))^(٦).

٤- أثبتت الحقائق التاريخية الموثقة تمكّن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من التراسل مع حكام الدول المتاخمة للجزيرة العربية^(٧) من جهة، وتمكّن الجاهليين أنفسهم من التراسل فيما بينهم من جهة أخرى^(٨). ((وقد ورد في كُتُب السّير أنّ الرسول [صلى الله عليه وآله] حين همّ بتوجيه الكتب إلى (قيصر) و(كسرى) وغيرهما قيل له: إنّ الروم لا يقرؤون كتابًا غير محتوم بختم صاحب الرسالة؛ فأمر بصنع خاتم له ختم به كتبه))^(٩)، وبهذا أستنتج أنّ من يأمر بصناعة خاتم بتوقيع مختص له فيه لحريّ به أن يكون متوافرًا على موادّ صناعة هذا الخاتم من جهة، وعارفًا بفن الكتابة والقراءة من جهة أخرى.

٥- توجيه النبي (صلى الله عليه وآله) بإطلاق سراح كلّ جنديّ من المشركين الذين أسروا في معركة (بدر الكبرى) مقابل تعليمه مجموعة من المسلمين (القراءة والكتابة)^(١٠).

وهذا حدث يدلّ على العمل الدؤوب من النبي (صلى الله عليه وآله) على نشر المعرفة بالقراءة والكتابة في أوساط المسلمين ترصينًا لصلتهم بالقرآن الكريم عن أقرانهم الذين عاشوا معهم في أمصارهم بثقافة (القراءة والكتابة) ممن لم يهتدوا بعد.

(١) النبي محمد عليه السلام كان يقرأ ويكتب، وهو الذي كتب القرآن بنفسه.

(٢) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي ١٢: ٦٣، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مكارم الشيرازي ٤: ٣٨٣، ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الراوندي، تح: السيد عبداللطيف الكوهكمري ١: ٢٠٧، وتاريخ اليعقوبي ٢: ٨٠، والتحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٢: ٣٢٤، وجمع القرآن الكريم حفظًا وكتابةً، د. علي بن سليمان العبيد ٢١، والبداية والنهاية، ابن كثير ٥: ٣٣٩، والعقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ٢: ٧١. ومن هم كتاب الوحي وكم عددهم؟ هديل البكري (بحث منشور إلكترونيًا على موقع موضوع).

(٣) الصواب (على وفق).

(٤) الحداثة والقرآن ١٨-١٩. وهو تقريره الذي أقامه على آراء الكاتيبين الإبرانيين عبدالكريم شروس في كتابه (بسط التجربة النبوية)، والشيخ محمد مجتهد الشيبستري في كتابه (قراءة بشرية للدين)، والمفكر جورج طرابيشي في كتابه (إشكاليات العقل العربي).

(٥) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر ٢٧٥-٢٧٦، والنص القرآني وسلطة التراث ٢١-٢٦.

(٦) التبيان، الطوسي، تح: أحمد شوقي الأمين وزميله ١: ٢٠١. وينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، تح: إحسان عباس ٣: ١٩٤، وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨)، والصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، تح: عبدالرحمن بن عبدالله وزميله ٢: ٤٢٨، والبحر المحيط، ابن حبان ١٠: ١٩٤، وتفسير ابن كثير ٧: ٢٠١، وكنز العمال، المتقي الهندي ١: ٤٤، وروح المعاني، الألوسي، تصحيح: محمّد حسين العربي ٢٠: ١٤٦، والتحرير والتنوير ١٤: ٤٠٣،

(٧) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٠٥.

(٨) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٠٣.

(٩) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٠٥.

(١٠) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ضبط: شعيب الأرنؤوط وزميله ٥: ٦٥.

وقد كان لهذا التوجيه الأثر النفسي البالغ في هؤلاء الأسرى المشركين (المتعلمين) القائم على أن هذا النبي ليس بجاهل، ولا طالب سلطة سوط، وجبروت، وغنائم، وتقتيل، وتشريد كما عُرروا هم بذلك، إنما هو نبي رحمة، وعلم، ومعرفة، وبناء للإنسان، وإنقاذ له من الجهل والجهالة؛ فكان لهذه المساومة العلمية - الأخلاقية الرائعة معهم أثرها في توجه جمع منهم لاعتناق الإسلام والإيمان برسوله ورسالته^(١).

٦- إن التجارة التي عمل بها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) تتطلب حتماً معرفته بالتوثيق والحسابات التجارية من رأس مال، وأرباح اقتضتها رحلته الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب (عليه السلام) في قافلة تجارية لقريش وهو ابن اثني عشرة سنة، واقتضتها رحلته الأخرى إلى الشام أيضاً شريكاً لأهم المؤمنين خديجة (عليها السلام) قبل زواجه بها بقليل وهو ابن خمسة وعشرين عاماً^(٢). فهي تجارة تتطلب معاهدات، ووثائق بيع وشراء تُكتب، وتقرأ، وتُدقق فتوقع؛ فكيف به في هذا المجال الحساس اقتصادياً ألا يكون عارفاً بالقراءة والكتابة^(٣)؟

٧- إن الله تعالى وصف رسوله الأكرم (صلى الله عليه وآله) بما لم يصف به رسولاً أو نبياً قبله إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/٤]. وهذا الخلق العظيم يستدعي تكامل صفاته الروحية، والبدنية، والشكلية، والفنية، والمعرفية، والعلمية. ومنها تمكنه من أفضل نعمة انماز بها الإنسان وهي نعمة القراءة والكتابة. أمّن المعقول أن يُحبي بهذه النعمة السامية أجلاف العرب وجهلهم بالأخلاق، ويحرم منها خير خلق الله تعالى النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله)؟! **ثانياً/ مرحلة التصدي للحن^(٤):**

أكد الدكتور (تمام حسان) بما ((لا جدال فيه أن للحن كان معروفاً قبل الإسلام وفي وقت ظهوره، وأنه كان جائزاً حتى من سادة العرب وأشرفهم. ففي الجزء الأول من الجامع الصحيح للسيوطي أن النبي [صلى الله عليه وآله] قال: ((أنا أعرّب العرب ولدنتي قريش، ونشأت في سعد بن بكر؛ فأني يأتيني اللحن؟!)). وإن نفي اللحن عنه [صلى الله عليه وآله] لَيَتَضَمَّنُ أَنَّ للحن كان ظاهرة معروفة حينئذ، وأن بعض سادة العرب كانوا يلحنون؛ ولذلك رأى (عليه السلام) أن ينص على أنه غير هؤلاء الذين يصدر اللحن منهم))^(٥).

وهذه المرحلة هي التي أمر فيها الإمام علي (عليه السلام) بكتابة أصول النحو في رقة أملاها على الصحابي الجليل أبي الأسود الدؤلي^(٦) (رضي الله عنه) يوجه في ضوئها بالتصدي للحن الذي أخذ يتفشى على ألسنة العرب، أو الداخلين في الإسلام من غير العرب وهم يُخَطِّنون في قراءة القرآن. وقوام هذه المرحلة (المنهج الوصفي الدلالي). والإمام علي (عليه السلام) لم تُخَلَقْ عنده معرفة بأصول النحو من عدم فجأة، وإنما أخذ هذه المعرفة عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إذ قال: ((لقد علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب، كل باب يفتح ألف باب))^(٧).

ثالثاً/ مرحلة تأليف المتون اللغوية (النحوية):

وهي المرحلة المتطورة بتطور الحياة المعرفية، وتوافر وسائل الكتابة، وانتشار الموارد البشرية العارفة باللغة، والنحو، المخلصة في تأليف الكتب التي توثق علوم اللغة العربية، وتأخذ بلغات القبائل العربية الخالصة تُنظَرُ عنها، وتحثي بالشعر العربي، والنثر الفصيح المعتد به تستشهد به، ويبدع مؤلفوها وأصحاب الآراء فيها الأمثلة اللازمة للمعرفة اللغوية والنحوية. ومثال هذه المرحلة كتاب

(١) ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس ١: ٣٧٤، والشمائل المحمدية في التعامل مع الأسرى (أسرى بدر نموذجاً)، د. إبراهيم بن محمد الحقييل (بحث قيم منشور في مجلة البيان إلكترونياً ٢٠١٦)

(٢) ينظر: السيرة والتاريخ: عرض تحليلي لحياة وسيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، مؤسسة المعارف الإسلامية الثقافية ٢٤-٢٥.

(٣) ينظر في شؤون هذه التجارة: السيرة لابن هشام ١: ١٨٧.

(٤) أجد أنه من المناسب ذكر هذه المرحلة، وما يليها إتماماً للفائدة وإن لم يكن موضوع هذه المراحل من صلب مشكلة هذا البحث وحله.

(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية ٨١.

(٦) ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام ٥: ٩ و ١٠.

(٧) بحار الأنوار، المجلسي ٧: ٢٨١.

(العين) للخليل الفراهيدي، و(الكتاب) لسبويه، و(المقتضب) للمبرد، وكتب (معاني القرآن)، وكتب (التفسير اللغوي). ويمكننا أن نوصلها إلى أواخر القرن الخامس الهجري. وقوام هذه المرحلة (المنهج الوصفي الدلالي)، و(المنهج التعليمي الرياضي).

رابعاً/ مرحلة التفريع وكتابة الشروح والحواشي عليها:

وهي المرحلة التي أخذت فيها كتب المتون اللغوية والنحوية وقرع عنها وعليها من الشروح والحواشي ما صعّب في النحو أكثر مما سهل فيه. ويمكننا قراءة هذا النشاط التأليفي منذ نهاية القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا بنسب متفاوتة من التأييد والالتزام به. وقوام هذه المرحلة (المنهج التعليمي الرياضي الابتداعي) مع شيء من (المنهج الوصفي الدلالي).

خامساً/ مرحلة التجديد، والتيسير، والاجتهاد:

وهي مرحلة شهدها العصر الحديث، والحالي وقد سبقت بمحاولة شهدتها مرحلة (التفريع وكتابة الشروح والحواشي) هي محاولة (ابن مضاء القرطبي) في كتابه (الرد على النحاة)، ولكنها نشطت في العصر الحديث بدراسات كثيرة كمحاولات (إحياء النحو) في العام ١٩٣٧م للأستاذ (إبراهيم مصطفى)، و(النحو الجديد) في العام ١٩٤٧م للأستاذ (عبد المتعالى الصعدي)، و(نحو التيسير) في العام ١٩٦٢م للدكتور (أحمد عبدالستار الجوارى)، و(في نحو اللغة وتراكيبها) للدكتور (خليل أحمد عميرة)، و(في حركة تجديد النحو وتيسيره) لأستاذنا الدكتور (نعمة رحيم العزاوي)، وكتاب (دلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية: دراسة نقدية للقول بال حذف والتقدير) وأبحاث (جمع المؤنث، أو المجموع بالألف والتاء)، و(واو السبق في القرآن الكريم: دراسة دلالية)، و(التركيب الشرطي بـ(الني وحتى))، و(الطلب وحتى): دراسة دلالية في القرآن الكريم) للدكتور (علي عبدالفتاح الحاج فرهود). وقوام هذه المرحلة (المنهج الوصفي الدلالي)، و(معطيات النظريات اللسانية الحديثة) مع اعتماد - عند طائفة من النحويين - على (المنهج التعليمي الرياضي). وهي محاولات ونظريات تأتي في ثلاث دوائر رئيسية هي:

١- التيسير المقبول لانتهاجه حفظ هوية النحو العربي.

٢- التيسير المرفوض لانتهاجه طمس هوية النحو العربي.

٣- الاجتهاد البكر القائم على المعرفة اللغوية والنحوية.

إن ميدان البحث ليس معنياً بتبيين هذه الدوائر بالتفصيل اللازم لها. وقد اقتضت خطة البحث الإشارة إليها استكمالاً للنفع المعرفي لها عما فصلت القول له فيها المؤلفات، والدراسات الكثيرة الوافية^(١).

مما مرر نستنتج أن الإنسان الأول خلق متكلماً بإلهام الله تعالى لدنياً، ثم تعاقبت الأمم الإنسانية، وتعارفت بعد الإلهام على لغاتها التي (مات متروكها)، و(تطور جديدها) بالتحديث اللازم لها. ومنها ما كان بهذا المنهج التاريخي للغات العربية، ونحوها التي إنما وثقت عن حكمة، وفهم، ومعرفة، وتنظير رصين لضبط النطق بها، والفهم لها ولمضامينها بناءً على مراحل نشأتها بنشأة الإنسان الأول الناطق بها، حتى تحديثها بنزول القرآن الكريم وإلى يومنا هذا. والمنكر لهذا التوثيق التنظيري مع بزوغ الرسالة السماوية بـ(اقرأ) رسالة الثقافة، والخطاب المعرفي إنما هو منكرٌ لحقيقة لا يعنى عن رؤيتها إلا من عميت بصيرته.

وبهذه الحقيقة، وما مرر العرض له؛ فإن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) قد تمكّن منها إلهاماً، وصار بها عارفاً إلهاماً؛

فوثق التبليغ الإلهي الهادي بها.

(١) ينظر: المشكلة اللغوية العربية، سمر رُوحى الفيصل ٥٣-٧٠، وصراع اللغة العربية من أجل البقاء ٢٣٥-٢٣٨.

مصادرُ البحثِ ومراجعُهُ

- القرآن الكريم

- ١- الاجتماعيات للصف الأول المتوسط، د. نجدت عبدالرؤوف عبد الرضا وآخرون، ط١، المديرية العامة للمناهج/ وزارة التربية العراقية/٢٠١٧م.
- ٢- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد (ت ٥٠٥هـ)، ط١، دار ابن حزم - بيروت/١٤٣٦هـ -٢٠٠٥م.
- ٣- إشكالية البعد التاريخي للقرآن: دراسة تأسيسية لتاريخ بعض السور القرآنية، د. عادل عباس النصراوي، ط١، دار تموز، دمشق/٢٠١٥م.
- ٤- أصل الأنواع، تشارلس دارون، ترجمة: مجدي محمود المليجي، تقديم: سمير حنا صادق، ط١، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة/٢٠٠٤م.
- ٥- إعادة قراءة القرآن، جاك بيرك، ترجمة: د. وائل غالي شكري، تقديم د. أحمد صبحي منصور، ط١، دار النديم للصحافة والنشر، مصر/١٩٩٦م.
- ٦- أُلغاز تاريخية مُحيّرة، بول أرون، ترجمة: شيماء طه الريدي، مراجعة: إيمان عبدالغني نجم، ط١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر/٢٠١٥م.
- ٧- الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل، العلامة الفقيه المفسر ناصر مكارم الشيرازي، ط١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- ٨- بحار الأنوار، العلامة المجلسي (١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت/١٤٠٤هـ.
- ٩- البحر المحيط، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت/١٤١١هـ -١٩٩٠م.
- ١٠- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة (د.ت).
- ١١- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت/١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.
- ١٢- بصائر الدرجات، الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار (٢٩٠هـ)، ط١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/٢٠١٠م.
- ١٣- البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي (١٩٩٢م)، مطبعة العمال المركزية، بغداد-١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ١٤- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تح: عبد السلام محمّد هارون، ط ٥، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة/١٩٨٥م.
- ١٥- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر/ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ١٦- تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة: د. جورج تامر، تعديل: فريديريش شفالي، ط١، مؤسسة كونراد - أدناور، بيروت/٢٠٠٤م.
- ١٧- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (٢٩٢هـ)، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- ١٨- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تح: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير العاملي، المطبعة العلمية ومطبعة النعمان، النجف الأشرف/١٩٥٧م.

- ١٩- التحرير والتتوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٣م)، الدار التونسية للنشر، تونس - ١٩٨٤م.
- ٢٠- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت/١٤٠١هـ.
- ٢١- جذور تدوين القرآن الكريم، الشيخ محمد جبار منصور البهادلي، مجلة (صدى القرآن) العدد ١٣، السنة ٤، دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة/ ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
- ٢٢- جمع القرآن الكريم حفظاً وكتابةً، د. علي بن سليمان العبيد، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة (د.ت).
- ٢٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للطبعات، بيروت (د.ت).
- ٢٤- الحدائث والقرآن، سعيد ناشيد، ط٢، دار التتوير للطباعة والنشر - تونس/ ٢٠١٦م.
- ٢٥- الحفاظ على سلامة اللغة العربية، د. أحمد مطلوب (ت ٢٠١٨م)، مجلة الضاد، العدد ٣.
- ٢٦- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت/١٩٨٠م.
- ٢٧- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار (ت ١٩٦٦م) ط٢، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت/١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.
- ٢٨- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت/١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٢٩- دراسات في الكافي للكليني، والصحيح للبخاري، هاشم معروف الحسني (منشور إلكترونياً).
- ٣٠- دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ت.م. جُونستون، ترجمة: د. أحمد محمد الضبيّب، ط٢، الدار العربية للموسوعات - بيروت/١٩٨٣م.
- ٣١- دلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية: دراسة نقدية للحذف والتقدير، د. علي عبدالفتاح، ط١، نشره مركز القرآن الكريم في ديوان الوقف الشيعي، بغداد/٢٠١٠.
- ٣٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تصحيح: محمّد حسين العربي، دار الفكر، بيروت/١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٣٣- زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين أبو عبدالله المشهور بابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، ضبط نصه: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت/١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ٣٤- سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلي (٤٦٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢.
- ٣٥- السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت/١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٣٦- السيرة والتاريخ: عرض تحليلي لحياة وسيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، مؤسسة المعارف الإسلامية الثقافية (د.ت).
- ٣٧- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، د. جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة - شركة مطابع المجموعة الدولية - الكويت/ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٣٨- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (٦٥٥هـ)، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ٣٩- الشرائع المحمدية في التعامل مع الأسرى (أسرى بدرٍ نموذجًا)، د. إبراهيم بن محمد الحقيّل (بحث قيّم منشورٌ في مجلة البيان إلكترونياً ٢٠١٦).

- ٤٠- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- ٤١- صراع اللغة العربية من أجل البقاء، كاظم محمد النقيب، مطبعة الطف، العراق - كربلاء (د.ت).
- ٤٢- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي، تح: عبد الرحمن بن عبدالله التركي وكامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت/ ١٩٩٧ م.
- ٤٣- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، تح: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت/ ١٩٦٨ م.
- ٤٤- العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد/ ١٩٧٢ م.
- ٤٥- العربية والتحديث: اتجاهات التأليف اللغوي في العراق، د. محمد عبدالمطلب البكاء، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٩٩.
- ٤٦- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)، تح: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت/ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٤٧- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ)، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الجمهورية العراقية/ ١٩٨١ م.
- ٤٨- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن سيد الناس، اليعمرى الربيعي (ت ٧٣ هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت/ ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ٤٩- الفائق في غريب الحديث، جارالله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، عيسى البابي الحلبي وشركاه. (د.ت).
- ٥٠- فصول في فقه اللغة، د. رمضان عبدالنواب، ط٦، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة- ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.
- ٥١- في نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، مايكل كورباليس، ترجمة: محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة - شركة مطابع المجموعة الدولية - الكويت/ ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ٥٢- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (٢٨٥ هـ)، مراجعة لجنة من المحققين، مكتبة المعارف، بيروت ومكتبة النصر، الرياض/ ١٣٨٦ هـ.
- ٥٣- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت/ ١٩٨٩ م.
- ٥٤- اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب - القاهرة/ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٥٥- مباحث في فقه اللغة العربية، د. أسعد محمد علي النجار، مكتبة الرياحين - بابل - الجلة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ٥٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، ط٢، دار الكتاب ودار الفكر، بيروت/ ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٥٧- محاولة في أصل اللغات، جان جاك روسو، تعريب: محمد محجوب، تقديم عبدالسلام المسدي، دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية) - بغداد ١٩٨٦.
- ٥٨- المحبر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥ هـ)، تح: د. إيلزة ليختن شنتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت).
- ٥٩- المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ط١، مكتبة سلمان المحمدي، بغداد/ ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- ٦٠- المرسل - الرسول - الرسالة، السيد محمد باقر الصدر (ت ١٩٨٠ م)، دار المعارف للمطبوعات، بيروت/ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٦١- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦ هـ)، اعتنى به وراجعته: كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت/ ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

- ٦٢- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تح: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة/ ١٩٥٨م.
- ٦٣- المشكلة اللغوية العربية، سمر زوحي الفيصل، ط١، جروس برس، لبنان/ ١٩٩٢م.
- ٦٤- المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، د. عزالدين إسماعيل، الناشر: مكتبة غريب، القاهرة (د.ت).
- ٦٥- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تح: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط٢، عالم الكتب، بيروت/ ١٩٨١م.
- ٦٦- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تح: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ط٢، الموصل/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٦٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، طهران/ ١٣٧٨هـ.
- ٦٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط٢، ساعدت جامعة بغداد على نشره ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٦٩- مكاتيب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، الشيخ علي الأحمد الميانجي، ط١، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع/ ١٩٩٨م.
- ٧٠- مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني (٥٨٨هـ)، تح: يوسف البقاعي، ط٢، دار الأضواء، بيروت/ ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ٧١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قطب الدين الراوندي، تح: السيد عبداللطيف الكوهكمري، قم/ ١٤٠٦هـ.
- ٧٢- من هم كتاب الوحي وكم عددهم؟ هديل البكري (بحث منشور إلكترونياً على موقع موضوع).
- ٧٣- المهارات اللغوية وعروبة اللسان، د. فخرالدين قباوة، ط١، دار الفكر - دمشق/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٧٤- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ط٢، دار الحديث، مطبعة اعتماد، قم/ ١٤٢٢هـ.
- ٧٥- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٩٨١م)، ط٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٧٦- النبي محمد عليه السلام كان يقرأ ويكتب، وهو الذي كتب القرآن بنفسه، د. أحمد صبحي منصور (بحث منشور على موقع أهل القرآن الإلكتروني بتاريخ ٦/٨/٢٠٠٦).
- ٧٧- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، د. حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، منتدى سور الأزيكية، مصر (د.ت).
- ٧٨- النص القرآني وسلطة التراث: دراسة في كشف المعنى وتوجيهه عند المسلمين في عصر التأسيس، د. عادل عباس النصراني، ط١، تموز - ديموزي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق/ ٢٠١٨.